

أيها الإنسان! لست إلهًا؟

كلمات عن التواضع والاعتدال

لأنه لا يجوز لإنسان
أن يقيس نفسه بالآلهة.
إنه إن ارتفع بنفسه،
ولس النجوم بهامته،
لا يثبت كعباه المرتعشان
في أي مكان.
بل تعبت به
السحب والرياح.

جوته: عن قصيدة «حدود الإنسانية»

موقف الإنسان في هذه الأيام موقفٌ عجيب.
لا أحب في بداية هذا المقال أن أتسرّع بالحديث عن انحلال الإنسان المعاصر وتفسُّخه
ومحنته وما شابه ذلك من الكلمات اليسيرة، ولكن القارئ قد يتفق معي إذا قلت إنه
يشعر بنوعٍ من الإحساس بالغربة، وبأن العالم المحيط به قد أصبح يهدده ويعاديه على
نحوٍ من الأنحاء. إنه يشعر — كما يقول الشاعر رلكه — بأنه «لم يعد مُطمئنًا في بيته». «
ويحسُّ وسط العالم الذي فسَّر كل شيء فيه «بأنه غريب لا وطن له.» في خِصْم هذا الضياع

والاضطراب يصبح البحث عن الملاح الرائد أو عن النجم الهادي أمرًا طبيعيًا. وإذا كان كثير من الكُتَّاب والمؤرخين قد وصفوا القرن الثامن عشر بأنه القرن الذي يتميز بانتصار العلوم الطبيعية، والتاسع عشر بالعلوم البيولوجية، فقد نادى عددٌ غير قليل منهم بأن القرن العشرين هو قرن القلق. ولعل الوجودية لم تكن وحدها هي السبب في إطلاق هذه الكلمة، بل كانت هي علة رواجها حتى أصبحت «موضة» على كل لسان. مهما يكن من شيء فإن المحنة قائمة لا شك فيها، نحسُّ بها في حياتنا اليومية كما نحسُّ بها في صراع المذاهب والنظم والأفكار، وطبيعي ألاَّ يبلغ الغرور بكاتب هذه السطور إلى الحد الذي يزعم معه أنه يشخص داء العصر أو يصف البلسم الشافي منه، ولكنه سيحاول — بغير أن يتعرض للتطور التاريخي الطويل الذي أدى إلى هذا القلق — أن يضع يده على أحد أسباب أزمتها، فيقول — وقد لا يخلو حُكمُه من الخطأ أو التعجُّل: إنها قد ترجع في بعض جوانبها إلى فقدان التواضع، والبُعد عن الحدِّ والاعتدال.

والكلام عن الاعتدال يؤدي بنا بالضرورة إلى الكلام عن طبيعة الإنسان، فمن صفاته الأساسية، لا بل من أولى واجباته، أن يعرف لنفسه حدًّا يقف عنده، وأن يُعيِّن هذا الحد بمحض اختياره؛ فالإنسان — دون غيره من الكائنات التي تعلو عليه، أو تدنو عن مستواه — قد وُهبَ هذه الملكة التي تدل عليه والتي نسميها ملكة الحدِّ. فهذه الكائنات، بقدر ما تسمح معرفتنا الراهنة بالحديث عنها، تلتزم بطبيعتها بحدٍّ لا تستطيع أن تتجاوزه، أو لا تحتاج إلى تجاوزه. فالطبيعة مثلًا قد تكفلت بالألَّا تصل الأشجار إلى السماء، وهي كذلك قد أعطت الحيوان إحساسًا غريزيًّا بالحد الذي يقف عنده ولا يتعداه، والوحوش نفسها لا تقتل إلا بالقدر الذي يساعدها على الحياة، فإذا شبعتم لم تجد ما يحركها إلى مزيد من القتل. إن الغريزة وحدها هي التي تدفعها إلى القتل، والغريزة وحدها هي التي توقفها عن الإسراف فيه؛ ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إن الوحش المفترس يظل بريئًا حتى وهو يلتهم ضحيته؛ لأنه لا يعرف شيئًا عمَّا نسميه بالجشع أو الحقد أو الانتقام، بل إن القوى المادية نفسها في اندفاعها وبطشها الأعمى، تصل دائمًا إلى النقطة التي تلتزم فيها بحدِّ تقف عنده، أمَّا الإنسان وحده فهو الذي يمكنه أن يفلت من الحدود والمقاييس، ويتوه في ضلال التطرف والشطط، وينساق وراء العناد أو الغرور فيحاول القفز وراء حدوده البشرية؛ ذلك أنه يستطيع أن يتحرَّر من قيود الغريزة ويسلم أمره إلى العقل والبصيرة، وهما دائمًا موضع السؤال والإشكال. غير أن تعريفنا له بأنه حيوانٌ عاقل لم يستطع أن يُلزمه بالتعقُّل؛ فهو يميل بطبعه إلى السخط على نفسه وعدم الاقتناع ولا القناعة بشيء

أيها الإنسان! لست إلها؟

يُرضي طموحه أو يُشبع تطلعه، والذين يكررون عليه من أجيال طويلة أن «القناعة كنزٌ لا يفنى» لم يستطيعوا أن يقنعوه بذلك لحظةً واحدة!

عرف اليونان الأقدمون هذه النزعة الكامنة في طبيعة الإنسان، وتحدّثوا عنها في حكاياتهم وأمثالهم، وحذّروا منها على لسان حكمائهم وشعرائهم، فما من قدر عندهم أهدح من أن ينساق الإنسان وراء التهور الأعمى ليحطّم نفسه بنفسه. كذلك كان قدر «إيكاروس» الذي أراد أن يطير فوق الأرض فسقط مُحطّمًا عندما اقترب من الشمس، وكذلك نجد في أقوال الحكماء السبعة الذين عاشوا حول عام ٦٠٠ قبل الميلاد وتحدثت عنهم العصور التالية بما يشبه حديث الأساطير؛ ما يحض الإنسان على التزام الحد والاعتدال، ويذكّره على الدوام بأنه بشر وليس إلهاً.

ولست أحب أن أثقل على القارئ بالكلام عن هؤلاء الحكماء،^١ فقد تتسع لذلك فرصة أخرى، ولكن ما يهّمنا الآن منهم هو أنهم يكادون يتفوقون في التنبيه إلى ضرورة التزام الحد والبعد عن المبالغة والتهور والإسراف. وأشهر حكمة في هذا الصدد هي الحكمة المشهورة: «لا تبالغ في شيء» (ميددين أجان) أو لا تزدد عن الحدّ، وهي قريبة من حكمة أخرى تُنسب — كسابقتها — إلى هذا الحكيم أو ذاك: «الحد أفضل شيء» (ميترون أريستون). والحكمة الأولى تُنسب في معظم الأحيان إلى المشرع الآثيني المشهور صولون، وقد تُنسب كذلك إلى خيلون اللاكيديميوني، بل إن هناك من يذهب إلى القول بأنها كانت محفورة على أحد أعمدة معبد دلفي إلى جانب الحكمة المشهورة: «اعرف نفسك» التي تُنسب كذلك إلى أحد هؤلاء الحكماء (ولعله طاليس). والاختلاف بين الحكمتين ليس بعيداً؛ فمعرفة النفس تنطوي بالضرورة على معرفة الحد الذي ينبغي على هذه النفس أن تلتزم به حتى تكون معرفتها بنفسها أتمّ، وعدم المبالغة في شيء لا يتأتى إلا عن معرفة أتمّ بالنفس، وإدراك لقدراتها

^١ يختلف الرواة المتأخرون في عدد هؤلاء الحكماء المشهورين بالسبعة، كما يختلفون في نسبة هذه الحكمة أو تلك إلى أحدهم أو إلى الآخر، ومع ذلك فإن أشهرهم أربعة من آسيا، هم: طاليس الميلي، وبياس من برينيه، وبيتاكوس من ميتيلينيه، وكليوبولوس من لندوس، وثلاثة من أوروبا، هم: صولون الآثيني، وخيلون اللاكيديميوني، وبرياندر الكورنشي. راجع إن شئت النصوص الأصلية التي جمعها ونشرها برونو سنل، ونُشرت في سلسلة «توسكولوم» الكلاسيكية.

Bruno Snell: Leben und Meinungen der sieben Weisen, Mtinchen, Tusculum, 1952

راجع كذلك كتاب المؤلف «الحكماء السبعة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

وحدودها بحيث تستطيع التمييز بين ما تستطيع وما لا تستطيع. وليس عجباً بعد ذلك أن يروي الرواة أنها كانت محفورة على معبد دلفي المُقام لأبولون إله النور والشعر والموسيقى، الذي كان يفزع إليه الإغريق كلما أَلَّت بهم كارثة أو أظلم في وجههم طريق؛ ليسمعوا من كهنته فصل الخطاب. مثل هذه الكلمة التي تُكْتَب على المعبد المُقدَّس لا بد أن تكون نبراساً وشعاراً (إن جاز هنا أن نستخدم هذه الكلمة التي مسخها العصر الحديث) للروح اليونانية، وأن تخلع القداسة على قائلها أيّاً كان اسمه، وكذلك كانت بالفعل عند اليونانيين في عصرهم الذهبي. ولن يستطيع أحد أن يُحصي الصور التي وردت بها في أشعارهم ومسرحياتهم وأساطيرهم وعلى لسان الحكماء والأدباء والمؤرخين منهم.

ولعل رسالة اليونان — إن لم تكن رسالة الإنسانية نفسها — في تحقيق هذا الحد الذي يفتقر إليه البشر بطبيعتهم، وترويض نزعات التهور والتطرف التي تجرُّ عليهم الخراب، والعثور على «حكمة الوسط» التي يجدون فيها حقيقتهم؛ إنها في نفس الوقت رسالة الواجب التي تدعو الإنسان إلى إنسانيته، بل إننا لنستطيع القول بأن تاريخ الإنسانية هو تاريخ الصراع المستمر بين الاعتدال والتطرف. وإذا تأملنا هذا التاريخ وجدنا أن العصور تختلف عن بعضها البعض بقدر ما تعترف بالحد أو تتنكر له؛ فمن هذه العصور ما شكّل حياته على أساس الوعي به، ومنها ما نظر إليه نظرة الازدراء وتردّى في مهاوي الشطط والإسراف. من تلك على سبيل المثال نذكر اليونان القديمة، والعصر الوسيط في ذروته، وعصر النهضة الإيطالية، وازدهار الفن في فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر. والأدب الألماني في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وكلمة «الكلاسيكية» في هذه العصور تكاد تكون مرادفة للالتزام بالقيود والأشكال التي تفرضها معرفة الحد، سواء في الأدب أو الفن والعلم، أمّا العصور التي نسيت الحد أو تنكرت له، فمن الصعب تحديدها؛ لأنها تتوقف على الزاوية التي ننظر منها، كما أنها يمكن أن تكون موزعة بين العصور جميعاً بقدر ما أصاب الأفراد أو الجماعات فيها من كوارث نتجت عن التطرف في الأنانية أو استغلال السلطة أو شهوة البحث.^٢

٢. ف. بولنو: اعتدال الإنسان وتهوره، جوتنجن، ١٩٦٢، وقد اعتمدت عليه في كثير من المعلومات الواردة بهذا المقال.

O. Fr. Bollnow: Mass und Vermessenheit des Menschen. Gottingen, Vanden-heock & Ruprecht, 1962

أيها الإنسان! لست إلهًا؟

لن نستطيع هنا أن نتتبع هذا الصراع بين الاعتدال والتطرف، ولكننا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إنه لم يبلغ في أي وقت ما بلغه في العصر الحديث، لم يبلغ التطرف في عصر من العصور ما بلغه اليوم، ولم يحدث في تاريخ الإنسانية أن أفلتت قوى الشر والطيش واللامعقول من زمام العقل كما تفعل اليوم. ولو أن الأمر اقتصر على بعض الحركات الأدبية أو الصرخات الفنية لقلنا أوهام شعراء، ولابتسمنا ونمنا هادئين، ولكنه أصبح حقيقة واقعة نحسُّ بها في حياتنا اليومية، وخطرًا نشفق منه على نظام العقل والمجتمع والوجود، ونذيرًا بدمار الحضارة كلها في لحظات. كل ما في العالم من جمال، كل ما في التاريخ من تراث، وفي القلب من راحة أصبح معلقًا بغضبة جنرال مشهور، أو صرخة سياسي كبير، أو اكتشاف علمي رهيب، لا بل بغلطة جندي أو موظف بسيط في إحدى محطات التحكم في الصواريخ أو الطائرات المحملة بالقنابل الذرية أو سفن الفضاء المتجسِّسة على مساكن البشر. نعم، ليس ماكبث وحده هو الذي قتل النوم؛ فقد قتله كل هؤلاء.

هل يجرنا هذا إلى التشاؤم؟ ولكن كلمة التشاؤم تصبح كلمة ساذجة إذا أدرکنا هول ما يحيط بنا اليوم، فكل أحلام الرومانتيكيين أو شطحات اللامعقوليين أو الصرخات المثيرة على لسان فيلسوف القوة والإرادة «نيتشه»؛ تُصبح كألعاب الأطفال على شاطئ البحر المعتم العاصف الذي نقف اليوم أمامه. وهناك ضرورة عمياء وراء ما نشهده اليوم من مظاهر الجنون في السرعة والتسلح والتعصب الأعمى للمذاهب، والتحلل الخلقي في كل مكان، وتمجيد العمل بأي ثمن، والحماس للبطولة أيًا كانت، وتخزين قنابل الذرة والميكروبات؟ أم أن هذه الضرورة القاتلة ليست في التاريخ نفسه، بل لا بد من البحث عنها في مكان آخر؟ أنجدها في تلك الهوة المظلمة العميقة، في ذلك العالم السفلي المخيف الذي كشفت عنه أعمال فرويد والرومانتيكيين واللامعقوليين والرمزيين ... إلى آخر القائمة؟! أم نجدها في خُطب من يَعدوننا بفردوسٍ قريب على الأرض وبغير مقابل، اللهم إلا دم بعض الأجيال وشبابهم وسعادتهم؟! أم نجدها أخيرًا في كارثة لا بد أنها حدثت للعقل البشري نفسه، فهدمت الأعمدة التي كان يرتكز عليها هيكله النبيل، وأحدثت فيه صدعًا لن يلتئم إلا إذا أعاد العقل نفسه النظر في نفسه، وأدرك وظيفته الحقيقية التي ترتبط بالإنسانية منذ قال اليونان على لسان أرسطو: إن الإنسان حيوان ناطق؟

إن العقل هو الشيء الإنساني حقًا في الإنسان، والمطالبة اليوم بسيادة العقل والتعقل تصبح هي المطالبة بجعل الحياة إنسانية عن طريق الحد من القوى اللامعقولة وترويضها

وكبح جماحها. وإذا كان هناك واجب يُلقى عبئه على الناس اليوم فهو واجب الإيمان بجوهر الإنسان بوصفه كائنًا عاقلًا، وإدراك مسئولية هذا العقل في توجيه مصيره تجاه الفوضى والظلام المحيطين به؛ إن عليه أن يتعلم كيف يُطيع صوت العقل. طبيعي أننا لا نطلب منه أن يعود إلى التفاؤل العقلي الذي اتسم به عصر التنوير في القرن الثامن عشر وأدى بأحد أقطابه «ليبننتس» إلى رؤية النظام والانسجام في كل ما تقع عليه العين، والقول بأن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة؛ ذلك أن الرجوع بالزمن إلى الوراء شيء مستحيل، وأشد منه استحالة أن نطالب الإنسان بأن ينظر بعين أجداده أو يفكر تفكيرهم أو يحس إحساسهم، هذا إلى جانب أن الإيمان المطلق بالعقل في ذلك العصر لا يخلو اليوم من شيء من السذاجة والتفاؤل اليسير وحسن النية في طبيعة الإنسان الخيرة، وقد أثبتت الكوارث التي مرت بالعالم في حربين عالميتين أنها كانت نوعًا من العبط أو التمني، ومع ذلك يظل الإيمان بالعقل والثقة في قدرته على تأكيد قيمة الإنسان وإبراز مسئوليته هو الواجب الأول اليوم، الواجب الذي لا يحتاج إلى الكلمات الكبيرة أو طبول الوعظ المدوية، بل يحتاج إلى أن يحمله الناس في صمت وجدٍ وبساطة وهم يباشرون حياتهم اليومية، ولا بد من التفكير لحظة في هذا السؤال الخالد: ما هو الإنسان؟ سيعلمهم أن يتوقفوا قليلاً وسط التيار الذي يجرفهم كل يوم ليتذكروا أن الإنسان هو الكائن العاقل، أي الكائن الجدير بالاحترام والتكريم.

نقول: إن العقل هو مبدأ الاعتدال، ونصف الرجل في لغتنا اليومية بأنه «عاقل» إذا وجدنا لديه الاستعداد للفاهم، والالتقاء في وجهات النظر، والتسامح في قبول الرأي المعارض، والبعد عن التعصب بوجهة نظره. إنه رجل نأخذ ونعطي معه في الكلام، ونشترك معه في البحث عن الحل المعقول للمشكلات. ولكن ما هو الحل المعقول؟ ليس حلًا لمسألة حسابية أو رياضية، ولكنه العمل بروح من التسامح والمشاركة للتغلب على الخلاف والتناقض، والوصول إلى حالة من التوازن والتلاقي تسمح بأن يحيا الناس بعضهم مع البعض في سلام، هذا الصوت العاقل لا يمكن أن يسمع بالطبع حيث تنور الانفجالات وتنطلق النزعات، وتقذف بالإنسان كأنه كرة من اللحم والأعصاب المتوترة إلى أقصى حدود التوتر؛ ذلك أنه حيث يكون العقل يكون الاعتدال ويكون التزام الحد. ولكن هل يكون في حديثنا عن العقل إلغاء لكل ما توصل إليه اللاعقل من إمكانيات وما كشف عنه في طوايا النفس من كنوز وأسرار على يد أصحاب حركة «العاصفة والاندفاع» أو الرومانتيكيين أو الوجوديين

واللامعقوليين من أبناء اليوم، لا بل على يد الشعراء والمتصوفين والمهمين في كل العصور؟ لا يمكننا بالطبع أن نطلب ذلك؛ فنحن لا ننكر ولا نستطيع أن ننكر ما في كل هذه الحركات الفنية والأدبية والنفسية من جوانب إيجابية، ولا نستطيع أن نغمض أعيننا عن هذا العالم السحري المزدحم بالقوى الخفية، الذي ظل مغلقاً على أبناء العصور القديمة والعصر الوسيط وبداية العصر الحديث. كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نغفل عمّا في إبراز الحياة اللامعقولة من فائدة للعقل نفسه، ولا ما في تحليلات المعاصرين لألوان القلق والهيم والضياع والاعتراب والتأزم من خصوبة حقّة في فهم الإنسان. ولكن ما يهمنا هنا هو النتائج «العملية» التي يؤدي إليها هذا الاهتمام الزائد بجوانب اللامعقول، ومزالق التطرف والتهور التي يمكن أن تؤدي إليها؛ فقد يكون الوقت قد حان لتوجيه النظر إلى الجانب المعقول من الحياة بمثل ما وجهناه إلى الجانب غير المعقول، وقد يكون الوقت قد حان للقول بأن الجانب المضيء من الوجود لا يقل أهمية ولا روعة عن الجانب المظلم، وأن الأمل والشجاعة والتعاطف والفرح والحياة تستحق أيضاً — بعيداً عن كل تفاؤلٍ رخيص — أن نتكلّم عنها كما نتكلم عن اليأس والقلق والهيم والغربة والموت.

إن من الصعب أن نتتبع الحركات اللامعقولة في التاريخ الحديث لندرك إلى أي مدى انحرفت إلى التطرف ونسيت الحدود، ولكن يحسن أن نقف عند بعضها وقفه قصيرة قد تعيننا على تبين ما نُسّميه بالحد والاعتدال.

وأول ما يخطر على البال هو «نيتشه» فيلسوف الإرادة والقوة والإنسان الأعلى، والعبقري الذي دفع ثمن عبقريته بالدم والألم والجنون. إنه يقول على سبيل المثال في كتابه «وراء الخير والشر»: «لقد أصبح الحد (أو المقياس) شيئاً غريباً علينا، ولنعرّف بهذا: إن ما يدغدغنا الآن هو اللامتناهي اللامحدود، إننا نحن أبناء العصر الحديث نحن أنصاف البرابرة أشبه بالفارس الذي يمتطي صهوة جواد راكض إلى الأمام، نترك زمام اللجام يسقط أمام اللامتناهي، ولا نشعر أننا في قمة السعادة إلا حيث نكون في قمة الخطر.»

ولسنا في حاجة إلى اقتباس نصوص أخرى من نيتشه سيضيق عنها المقام؛ فهذا النص يصلح لإلقاء الضوء على «عدم الاعتدال» الذي قلنا إنه يميّز الطابع الأساسي للعصر الذي نعيش فيه، وقد يصلح كذلك ليبين لنا جانباً من خيانة الإنسان الحديث لإنسانيته، فقد استطاع نيتشه في كلمته الموجزة أن يُشخّص الداء ويعبّر عنه في أتم صيغة: إنه احتقار الحد والتتكر للمقياس، و«دغدغة» اللامتناهي واللامحدود التي تدفع بالإنسان إلى تحطيم

نفسه بنفسه، وهدم معبده فوق رأسه، وهو أخيراً تمجيد الخطر والإعلاء من شأن البطل الذي يتجاوز بالمغامرة والبطولة حدود الإنسان الحالي بمثل ما تجاوز الإنسان حدود القرد. ولن تخفى على القارئ هذه الكبرياء التي يصف نيتشه بها أبناء العصر الحديث — كما يصف نفسه — حين يقول عنهم: إنهم «أنصاف برابرة»، فمما لا شك فيه أن نيتشه لم يكن يقصد بالبطل أو الإنسان الأعلى أو نصف البربري ذلك «الوحش الأشقر» الذي راح ينشر الدمار في الحرب الأخيرة، كما أنه لم يكن يفهم من ورائه أي معنى من معاني التفوق الحربي ولا العسف أو الظلم من جانب «السادة» على «العبيد»، فالذي فهم هذا فأساء الفهم هم أنصاف المتعلمين أو أنصاف الأدميين من العسكريين ورجال السياسة الألمان الذين حسبوا أن البطولة هي العسف، والقوة هي العنف، والخطر هو الخطل والجنون. لقد ظنوا أنه يكفي أن يضع الإنسان الخوذة على رأسه والنياشين على صدره ويمشي مشية الإوزة لكي يكون بطلاً أو إنساناً أعلى! ولكن ألا يقع جزء من التبعة على هذا التمجيد المطلق للحياة الخطرة والطاقة المنطلقة من كل قيد والنزوع إلى المستحيل واللامتناهي؟ ألم يكن في هذا الشوق الفاوستي إلى المطلق غير المحدود إغراء لمن لا يملكون براءة نيتشه وشهامته بالسقوط في هاوية الظلم والطغيان؟ ألم يحمل ذلك البعض إلى تصوير الالتزام بالحد كأنه شيء جدير باحتقار الأقوياء، والجهد الصامت المتواضع للحصول على الأمان والاطمئنان كأنه شيء لا يليق بمن يسعون وراء البطولة والمطلق، والعمل في سبيل السلام والنظام كأنه تعبير عن الانحلال والضعف؟ وهل من العجيب بعد ذلك أن تفهم الحياة الخطرة على أنها إشعال الحرب، والعظمة الخلاقة على أنها الظلم والاستعباد؟ إن الإنسان هنا تأخذ النشوة بما يُحَيِّلُ إليه أنه هو العظمة الأخيرة للإنسان، وبدلاً من أن يرتفع إلى سماء «السوبرمان» نجده يسقط إلى هاوية الوحش، وبدلاً من أن يقوده الشعور المتكبر إلى أخلاق البطولة؛ نراه ينحدر إلى حضيض العبودية.

كلمة نيتشه إذن مثالٌ واضح على ما يميز الإنسان الحديث من بعده، أعني فقدان الإحساس السليم بالحد، والتنكر للمقياس والاعتدال، والاندفاع وراء التهور المخرب تحت ستار السعي إلى المطلق واللامتناهي. إن هذا التهور والانفلات من الحدود قد تخلل حياتنا الحاضرة من أخص خلجاتنا وهمومنا إلى أعم قضايانا في السياسة والاجتماع، وأصبحنا في غمرة التهور الجارف نعيش في خطر الدمار الشامل بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة الرهيبة. كذلك فإن جريتنا وراء المتعة لم يعد يعرف حدًا يقف عنده، وبحثنا عن اللذة المتجددة لا يسلمنا إلا إلى الألم المتجدد. نريد أن نقنتي التليفزيون، ولا نكاد نحصل عليه حتى نلهث

وراء الثلجة والعربة الخاصة والمركز المرموق، ولا نكاد نصل إلى هدف حتى تُلَهَبَ السياط ظهورنا إلى هدفٍ جديد، ولا نكاد نحقق حاجة حتى نشتهي حاجات وحاجات. وطبيعي أن الدعوة إلى حكمة الحكماء أو نُسْكُ النساك تكون هنا سخفاً يبعث على الضحك والرتاء، ولكن ألا يحق لنا مع ذلك أن نسأل: إلى أين يؤدي بنا هذا القلق المستمر؟ إلى أين يسوقنا التعجل الدائم واللهاث الذي لا ينقطع؟ وهل يعرف الراحة من يجري على الدوام؟ وهل يشعر بالمتعة الحاضرة بين يديه مَنْ لا يكفُّ عن السعي إلى مُتَعٍ جديدة لا تنتهي؟ ألا يكون السؤال هنا على الحد والاعتدال ضرورةً لازمة؟

ولا يختلف الأمر في عالم الصناعة والتقدم التكنولوجي؛ فالاكتشاف يلحق الاكتشاف، والرقم القياسي يضرب الرقم القياسي، والتقدم التكنولوجي يسير بسرعة مذهلة تنسيه السؤال عن معناه أو غايته، وكأنه عربة تنحدر من قمة الجبل إلى قاع الوادي، بعد أن غاب سائقها وفسدت فراملها. لقد أصبح الاهتمام بالكَمِّ على حساب القيمة، والكيف هو شعار العصر، وأصبحت الإحصائية التي تترجم الزيادة والتفوق إلى أرقام قياسية هي مطلب الساعة. ومن الطبيعي أن يكون الوقوف في وجه التطور أمراً مستحيلاً، بل غير مرغوب فيه، والحنين إلى فردوس الرعاة أو طبيعة «روسو» عاطفية وسذاجة. ولكن ألا يحق لسائل أن يسأل: نحن نتطور، جميل، ولكن إلى أين؟ ما المعنى ولأية غاية؟ أهو التطور من أجل الإنسان؟ أم الإنسان من أجل التطور؟ أليس من واجبنا في زحمة هذا العمل والتطور أن نفهم كيف نحافظ على هدوئنا الباطني؟ أليس على العالم ورجل الاقتصاد أن يراعي العدل والاعتدال؟ إن عليهما ألا يتركا التطور و«التكنيك» يسيطر على الإنسان؛ لأنهما قد خُلِقَا من أجله ولم يُخْلَقْ ليكون عبداً أو ضحيةً لهما، ذلك عبء يلقيه على الكتفين واجب المحافظة على الحد، وهو عبء يزداد ثقلاً كلما ازداد العلم والتكنيك تطوراً، فلا شك أن أي إنسان محبٌ للمعرفة والتقدم يعجب من كل قلبه بالنجاح العلمي الذي يتحقق كل يوم والجهد العقلي الذي يكمن وراءه، بل ويفتخر بأنه ينتمي إلى نفس الجنس الذي أخرج كل هذه المعجزات إلى الوجود، ولكنه كذلك لا بد أن يأسف للقلق والعذاب الذي سببه لأبناء هذا الجيل، والخوف المستمر من مصير هذا كله إن لم يتحكم العقل المتزن في زمامه. أمّا التطرف في مجال السياسة فلأترك كوارث حربين عالميتين وحروب جانبية لم تهدأ نارها يوماً واحداً أن تتحدث بنفسها عنه!

قلت: إن من الصعب أن أتتبع في هذا المجال الضيق تطور فكرة الحد والاعتدال، وبخاصة في تلك العصور «الكلاسيكية» التي قد يرجع السبب في تسميتها كذلك إلى أنها

عرفت كيف تحافظ على المقياس الصحيح في كل شيء، وأن تزن قدرات الإنسان بالميزان العدل، وتضع له في مجالات المعرفة والشعور والطموح تلك الحدود التي لا ينبغي للإنسان أن يتخطاها ما بقي إنساناً. إنه كلما تناول به التبجُّح والغرور إلى عرش الآلهة، أو هَوَتْ به الشهوة العمياء إلى حضيض الوحوش؛ فَقَدَ إنسانيته ولفَّ حبل المأساة حول رقبتة. وقد رأى القارئ كيف كتب اليونان الأقدمون شعارهم الرائع المضيء على بوابة تاريخهم، وكيف ظلت عبارتهم «لا تبالغ في شيء» هي اللحن الأساسي في حضارتهم وأدبهم. والقارئ يعرف بالطبع مقدار العذاب الذي قاساه بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة وأعطاهها للبشر، مع أنه لم يكن بشراً خالصاً بل كان نصف إله. وطبيعي كذلك ألا يغفل مَنْ يتعرض للاعتدال عن رأي الفيلسوفين العظيَمين: أفلاطون وأرسطو، الأول بفكرته المشهورة عن «السوفروزييني» (التعقل أو التدبُّر)، وهي فضيلة العلاقة والمقياس الصحيح الذي يحافظ به الإنسان على حريته تجاه النزعات والانفعالات، دون أن يضطر إلى كبت هذه النزعات والانفعالات، أو فكرته المشهورة عن العدالة كما شرحها في جمهوريته بوجه خاص، بحيث لا تقتصر على ما نفهمه منها الآن من فضيلة العدل والإنصاف عن طريق القانون، بل تتسع فتشمل التوازن الذي يحققه الإنسان بين ملكاته وقواه المختلفة، وتدل على المثل الأعلى للتجانس والانسجام. ولا نستطيع أن نغفل الثاني بفكرته المشهورة عن الفضيلة بوصفها «الوسط العسير» بين زيادة مفرطة في جانب ونقصان مُخِل في جانب آخر، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين الإسراف والبخل، ولا أن ننسى فضائل الفروسية في العصور الوسطى. وما نعرفه في التراث العربي من فضائل الشهامة والعفة والكرم والإباء أشهر من أن نتعرض له. المهم في هذا كله هو المقياس الحي الصحيح بين طرفين معيَّين، والحد المعتدل بين الانفعال الطائش الأعمى من ناحية والعقلانية الجافة الذليلة في ناحية أخرى، وليس هناك مقياس واحد يصلح لكل زمان ومكان، وإلا ألعينا صفةً أساسية من صفات الإنسان، وهي أنه كائن تاريخي، من حقه أن يحدد نفسه تحديداً متجدداً إزاء الظروف والمواقف الجديدة عليه. والمثل الذي قدمناه عن «إيكاروس» أو عن «ابن فرناس» اللذين تجاوز كلَّ منهما حدود الإنسانية في زمانه، وأراد أن يستعير جناح الطير ويرفرف فوق أرض البشر؛ لم يعد من الممكن اليوم أن نذكره كمثال على التطرف أو التهور، وإلا كُنَّا كمن ينصح الطيارين بأن يعودوا إلى العقل ويسيروا على الأرض فهي أسلم! المهم بعد هذا كله أن نوَكِّد نسبة الحد وانبثاقه عن حرية الإنسان وتقديره للموقف الذي يجد نفسه فيه، وأن نعرف أن كرامته وواجبه في أن يخلق لنفسه هذا الوسط المعتدل.

حين نذكر كلمة «الاعتدال» نذكر معها إحدى فضائل الرجولة التي كادت تفقدتها ذاكرة العصر. وليس من قبيل الصدفة أن الكلمة في لغتنا تقترب من كلمة العدل، على الأقل من ناحية الحروف والظلال التي تُلقيها؛ فبالاعتدال نشير إلى مسلكٍ عملي نلتزم فيه بالتوسط، ونتجنبَّ التطرف والشطط. فإذا قلنا على سبيل المثال: إن فلاناً من الناس معتدل في طعامه وشرابه، فإنما نقصد بذلك أنه يلتزم بمقدارٍ أو كمٍّ معينٍ في تناوله لهما، وأنه يزيد في هذا المقدار أو الكم إذا مال إلى التخمّة أو الشراهة. ولكن الاعتدال الذي نريده هنا أبعد في معناه وأعلى في درجته، إنه فضيلة أساسية لا تني مذاهب الأخلاق والأديان عن تأكيدها، هو هذه الكلمة التي تعرفها اللغة اللاتينية حين تقول Temperantia حقيقة: إن معنى هذه الكلمة الأخيرة مرتبط بضببط النفس عند الغضب، كما أننا لا نخلو في حياتنا اليومية من مقارنة الاعتدال الذي نعنيه بشيء غير قليل من الخوف من كل غرور أو اغترار، والتوصية بنوع من الحذر والتواضع. والكلمات الماثورة في هذا الصدد لا يكاد يحصيها العُدُّ، وسواء كانت حِكْمًا متداولةً، أو أبياتاً قديمة من الشعر، أو آيات من القرآن أو مأثورات من الحديث، فهي جميعاً لا تخرج عن معنى التقيد بحد لا يصح أن يتجاوزه الإنسان في الفكر والعمل، بل إن معظم الفضائل كالصدق والعفة والكرم تشارك في هذا المعنى بنصيب، وإذا كانت تشارك في هذا المعنى الإيجابي، فهي تشارك أيضاً في معنى سلبي؛ فهي تفيد التجدد، وعدم التطرف أو المبالغة والغلو، ومرادف الكلمة اليونانية لا يخرج عن هذا المعنى المؤلف، فكلمة «سوفروزين sophrosyne» تفيد الفهم المنظم المدبر، بمعنى أنه يجمع الأجزاء والأشياء المتفرقة ليضمها في نسقٍ واحدٍ منتظم، وليس من المصادفة أن تأتي كلمة «العقل» في اللغة العربية من «عقل البعير» أي ربطها إلى الودت، أي ألزمها المسلك الذي لا ينبغي أن تخرج عليه، أي ضببطها وأدخلها في نظام، وكذلك الأمر مع الاعتدال، فهو لا يضبط الأعضاء الخارجية وحدها، بل يحقق النظام في باطن الإنسان، ويخلق لديه ما نسميه راحة الضمير، بل لا إنه من دون الفضائل جميعاً ينصرف على الإنسان نفسه، فإذا كانت العدالة تتصل بإنصاف الغير، والشجاعة بإنكار الذات والتضحية بالمتاع والحياة، والصدق بإيثار الحقيقة مهما كان الكذب مقترناً بالكسب والنجاح، فإن الاعتدال دائماً ما يتعلق بالإنسان نفسه؛ إنه يجعله يوجه نظره وإرادته إليها وحدها، مهذباً ومعلماً ومربياً، وجاعلاً من الأثرة إيثاراً، ومن الشحّ كرمًا، والغضب اتزانًا، والشَّرَه عفة وقناعة، وبذلك تحافظ على النفس من حيث تعلم إنكار النفس، وتجعل من القوى التي يمكن أن تدمرها عاملاً على بقائها وبنائها. وبذلك تصبح العفة والقناعة والتواضع والرأفة والصبر

إلخ أسبابًا لتحقيق ما سَمِيناه بالاعتدال، كما يصبح الفجور والجشع والغرور والغضب أشكالًا للتطرف والغلواء. ولكن لماذا نكره بالفطرة كل ما يخرج عن الاعتدال ويجنح إلى التطرف والمبالغة؟ نُجيب باختصار: لأنه خروج على نظام العقل. ونسأل مرة أخرى: وما هو نظام العقل؟ أهو ناموسٌ مثاليٌّ من السنن والقوانين قد وُجِدَ قبل أن توجد الأشياء؟ أم هو شيء كامن فيها؟ نُجيب كذلك باختصار، وبغير أن ندخل في تفاصيل لا حاجة إليها: إن نظام العقل هنا يفترض صلة الارتباط بالواقع، فما يتفق مع العقل يتفق كذلك مع حقيقة الأشياء الواقعية، ويكون صوابًا وحقًا في ذاته، والعقل هنا هو الملكة التي يدرك الإنسان بها الواقع، فإذا خرج الإنسان عن حقيقة هذا الواقع ونظامه خرج كذلك عن حقيقة العقل ونظامه، فالعفة التي تتحكم في طاقات الجنس وتعضمها من الفحش أو الشذوذ، والشجاعة التي تضبط قوى النفس وتقيها من التهور أو الجبن، والتواضع الذي يحدد الطريق بين الغرور والضعفة، كلها فضائل تحقق نظام العقل وتُرْضي قوانينه الخالدة، وكل ما يحقق نظام العقل فهو يحقق نظام العدالة.

لقد عرفت الإنسانية من قديم الزمان — في تجارب الزهاد والقديسين والصالحين — أن العفة والقناعة هي الأصول الأولى للاعتدال وضبط النفس، كما عرفت أن فضيلة الاعتدال أوثق اتصالًا بالحياة الأخلاقية والعقلية للإنسان.

وينقلنا هذا إلى الكلام عن التواضع، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عن الاعتدال بغير أن نذكر التواضع، فمن المعروف أن من طبيعة الإنسان أن يطمح إلى تحقيق الصورة الكاملة لوجوده، وأن يسعى جهده إلى التفوق والامتياز. وحين تنجح فضيلة الاعتدال في ربط هذه النزعة الطبيعية بنظام العقل نطلق عليها اسم التواضع. ولكن ما هو التواضع؟ هو أن يقدّر الإنسان نفسه بما يطابق الحقيقة، دون أن يغالي في الزيادة أو النقصان، وما من شيء يوضح حقيقة التواضع أفضل من القول بأنه لا يتنافى مع الإباء، بل إنها متجاوران متقاربان، فإذا أردنا أن نبحث عن ضدهما وجدناه في الغرور والضعفة على التوالي.

فالأجْبِيُّ هو الذي يتجه بالفكر والعقل إلى عظام الأمور، إنه يسعى إلى العظمة ويحقق ما يجعله جديرًا بها «وإذا كانت النفوس كبارًا...» وينظر فيما حوله فيختار ما يليق به، ويعد نفسه لما يجلب له الشرف الرفيع، كل ما يخل بالشرف فهو غير خليق به، وكل صغار فهو مُحْتَقَرٌ في همته على نحو ما يقول المتنبي، إنه صادق غير هيّاب، وما من شيء تستبشعه نفسه كالخوف من إعلان كلمة الحق، والنفاق والخسة والخديعة وكل ما يصدر عن النفوس الصغيرة أشياء يحتقرها، بل إنه لا يعرف الشكوى من شيء ولا الشكوى لأحد؛

لأن قلبه لا يسمح لأي شر من الخارج أن ينتصر عليه، إنه كبير الأمل دائماً، واثق على الدوام، مرتاح القلب راحة مَنْ لا يعرف الخوف أو اليأس أو الارتياب، إنه لا يحني رأسه لإنسان، ولا يخضع لقدر، ولا يستسلم لاضطراب العاطفة، وليس غريباً بعد هذا أن يكون الإباء مقترباً بالتواضع، وألا يتنافى التواضع مع شيء بقدر ما يتنافى مع الضعة والمهانة.

والتواضع بمعناه الحق لا يتصل بعلاقة الناس بعضهم ببعض، إنه خضوع المخلوق لقوة تعلق عليه، وإقراره بالفناء والعجز أمام الوجود الأكبر، وهو في صميمه موقف باطني، تختاره الإرادة وتصر عليه، وليس مجرد مظهر خارجي في السلوك والعادات، إنه قبل كل شيء اعتراف من الإنسان بأنه «ليس إلهاً» ولا هو كالإله، ولعلنا نستطيع أن نقول: إن هذا الاعتراف نوعاً من الذكاء الفطري، أو من المرح والصفاء، وأن في الغرور شيئاً من الكآبة والجهامة جعلت البعض يقول: إن الذنوب جميعاً تفرُّ أمام وجه الله، إلا الغرور فهو يعانده ويتحدها! ونصل إلى الاعتدال في مجال المعرفة.

هناك من يقرءون الكتب وكأنهم يبتلعونها، إنها لا تجر عليهم إلا المغص والتخمة العقلية، وهناك مَنْ يتناولونها تناول الغذاء والشراب؛ لتصبح دماً من دمهم ولحمًا من لحمهم، أولئك تنطبق عليهم كلمة حب الاستطلاع *curiositas*، والآخرون كلمة الاجتهاد وحب المعرفة *studiositas*، ولا بد من التفرقة بين هاتين الكلمتين اللتين تمثلان الاعتدال والتطرف في النزوع إلى المعرفة والتجربة وإدراك التنوع في ظواهر الكون، والطموح الطبيعي إلى التعرف عليه.^٢

إن إرادة المعرفة — هذه الملكة العالية من ملكات الإنسان — في حاجة دائمة إلى الحكمة التي تضع لها الحدود التي ينبغي أن نقف عندها، فعلى الإنسان أن يعرف لنفسه حدًا لا يتجاوزه في معرفته للأشياء، حتى لا يقع في التناقض والوهم، ولا يسبح في التأمل الأجوف بعيداً عن أرض الواقع المتاح. كذلك كان هم واحد مثل «كانط» أو مثل «نيتشه» في حربهما على الميتافيزيقا، ولفتهما الأنظار إلى عالم التجربة والواقع.

ولكن كيف يكون هذا التطرف والخروج على الحد؟ نحن لا نستطيع بالطبع أن نصف جهود العقل في الكشف عن أسرار الطبيعة بالتطرف، أو طموح العلم إلى حل ألغاز الكون بالخروج عن الحد؛ فروح الفلسفة والعلم في السؤال، ولا يمكن أن يكون هناك

^٢ يوسف بيير، الحد والاعتدال، حول الفضيلة الرابعة الأساسية، ميونيخ، مطبعة كوزل، ١٩٥٥.

J. Pieper: Zucht u. Mass. Munchen, Kosel Verlag, 1955

حد لهذا السؤال، ومع ذلك فكثيراً ما يفلت منّا «الكل» حين نقصر البحث على «الأجزاء»، وكثيراً ما يكون سوء استغلال النظرة العلمية المدققة إلى الظواهر سبباً في ضياع «روحها» و«معناها» وفقدان الصلة الحميمة التي كانت تربط الإنسان القديم بها، وما زالت تقرب الطفل والشاعر منها، وربما كان هذا «النهم» العلمي الذي لا يقنع بحد يقف عنده سبباً في كثير مما يعانیه عصرنا من القلق والضيق اللذين لا يكف اليوم أهل المدن عن الحديث عنهما. ولعل كلمة من كلمات جوته في شيخوخته تعبر عن ذلك حين تقول: «إن في إمكاننا أن نعرف كثيراً من الأشياء معرفة أفضل، لو أننا لم نحاول أن نعرفها بالدقة المتناهية»، وعندما أطلق الروس قمرهم الصناعي الأول هلّل المتحمسون والمتعجلون بهذا النصر العلمي الذي كان وما يزال مفخرة للبشر في كل مكان، ولكن بعضهم ذهب في غمرة حماسه إلى حد القول بأن الإنسان قد أصبح قادراً على الكشف عن كل الأسرار، وكأن جيوش البشر قد ضربت الحصار حول مملكة الله! مع أن كل سر نكشف عنه اللثام يُفضي بنا إلى سرٍّ جديد، وكل انتصار حقيقي ينبغي أن يزيد من تواضعنا بقدر ما يُضيف إلى ثقنتنا بأنفسنا، ومعارفنا مهما زادت ليست إلا مصباحاً صغيراً نرفعه وسط بحرٍ مظلم من أسرار المجهول. طبيعى أن الإنسان لم تُخلَق له عينان إلا ليرى بهما، وينظر الأعماق وراء السطوح، ولكن هناك نوعاً من لذة الرؤية يفسد عليه معنى الرؤية الأصيل، ويجلب عليه التشتت والاضطراب؛ فالمعنى الأصيل للرؤية هو إدراك الواقع والحقيقة، غير أن نهم العينين لا يحاول إدراك الواقع، بل ينصبُّ على حب الاستطلاع. وإذا كان النهم في الطعام والشراب لا يقصد الشبع بقدر ما يقصد التلذُّذ بالمأكُل والمذاق، فإن نهم العيون المُحبَّة للاستطلاع لا يتجه إلى إدراك الحقيقة والتلبث فيها عن معرفة ويقين، بل يريد أن يسلم نفسه للعالم (على نحو ما يقول هيدجر في كتابه «الوجود والزمان» ص ١٧٢). إن حب الاستطلاع بهذا المعنى المبتذل لا يزيد عن كونه نوعاً من الهروب العقلي، كما يقول القديس توماس الأكويني، يتجلى في لذة الثرثرة والكلام، والظمأ الدائم إلى الاستطلاع، وجمع المعلومات، والقلق الذي لا يستقر على فكرة أو رأي. إن الإنسان يقتلع من جذوره، يعجز عن السكن في ذاته، يظل يتقلَّب من موضوع إلى موضوع ومن مكان إلى مكان، يهرب يائساً من فراغ نفسه ليبحث عن الوجود الخصب حيث يتعذر العثور عليه، وتظل شهوة الاستطلاع تلهث وراء الانطباعات والإحساسات، وتتهالك على الإثارة والضجة والإغراب، فتفقد البصيرة حين تُسيء استخدام البصر، وتفتح نوافذ الحواس على مصراعيها فتضيع الإحساس، وتبني

أيها الإنسان! لست إلها؟

لنفسها عالماً من الفراغ واليأس لا تسكنه إلا أشباح التسلية والزينة والأضواء والألوان، عالم خداع هو العدم بعينه، يخنق قدرة الإنسان على إدراك الواقع، ويفقده هدوء العقل وتركيزه وكرامته، ويبعده عن نفسه بقدر ما يبعده عن الحقيقة، فإذا طالبنا العين بالاعتدال فإننا نطالبها بأن تحمي نفسها من بريق المظهر لتعود إلى الرؤية الأصلية، وتأخذ نفسها بنوع من الصوم عن حب الاستطلاع حُباً في المعرفة، بذلك وحده تستطيع أن ترى نفسها وترى العالم، وتحافظ على هدوء النفس وانسجام الوجدان بعيداً عن بريق المظهر وصراخ الألوان، ولن يخفى على القارئ — خصوصاً في زمان الكم والدعاية والإعلام — ما في هذا النوع من الاعتدال من شجاعة ورجولة وجمال!

بالتطرف في اللذة أو التسلط أو مختلف أمراض الأنانية؛ يفقد الإنسان نفسه من حيث يريد أن يثبت وجودها، فكل خطوة على طريق التطرف هي في الواقع خطوة على طريق اليأس. إن المتطرف يخلق لنفسه جنّة كاذبة من المتع الموهومة، كلما حاول إثبات نفسه عن طريق اللذة ازداد نسياناً لها وهروباً منها؛ ذلك أنه سرعان ما يكتشف أن الخروج عن الحد هو اليأس بعينه، وحيث يكون التهاك على اللذة عبثاً وسخرّة، يكون الاعتدال حريةً ونقاءً، وما الاعتدال في نهاية الأمر إلى نقاء القلب. ولست في حاجة إلى أن أدعو القارئ إلى الصوم أو التهجد أو الوحدة أو الصمت حتى يصل إلى هذا النقاء، فرجال الدين والتصوف أقدر مني على ذلك، كما أن النقاء لا يُصنَع وليست هناك وصفة مجرّبة لتحضيره. إن الإنسان يكون في القلب أو لا يكون، قد تساعد على تطهيره تجارب الحياة من فرح عظيم أو ألم عظيم (فليست المآسي التي تمثل على المسرح هي وحدها التي تطهر كما تقول عبارة أرسطو المشهورة!) وقد ينقيه إحساس بالخطر الهائل، أو بالقرب من الموت، المهم أن نقّي الروح سيحسُّ بأن كيانه كله قد تفتّح للوجود، وأنه يقف موقف الشجاع الواثق من حقيقة الكون والإنسان، وأن طريق العدل والاعتدال هو سبيله الوحيد إلى هذا الموقف الشجاع.

مما يُعزّي النفس حقاً أن يرتفع صوت واحد من أنبل المفكرين من أبناء هذا الجيل دفاعاً عن الحد ودعوة إلى المحافظة عليه، وأعني به الكاتب المفكر «ألبير كامو». إنه في كتابه الرئيسي «المتنرد» الذي يستعرض فيه قدر الثورات الغربية — من ثورة سبارتاكوس محرر العبيد إلى الثورة الفرنسية والثورة الماركسية — يشرح كيف انحرفت هذه الثورات عن المتنرد المعتدل وانفلتت من الحد الذي ترسمه الطبيعة الإنسانية، فبدأت بتحريض الإنسان من العبودية وانتتهت بفرضها عليه. وإذا كان المتنرد بوجه عام هو ذلك الإنسان الذي يقول

«لا» في وجه الموت والظلم والعذاب، فهو كذلك الذي يقول «نعم» ليؤكد وجود حد ينبغي لمضطهده أن يقف عنده، إنه يقول له: «إلى هنا ولا تزيد»، كما يقول له: «هناك حد لا يجوز لامرئ أن يتخطاه»، ولكنه بهذا النفي والاحتجاج يؤكد في الوقت نفسه وجود قيمة يريد لها أن تُحترم، كما يؤكد وجود طبيعة إنسانية مشتركة لا يجوز لأحد أن يمتنها أو يجور عليها، فالتمرد الحق لا بد أن يكون تمرُّدًا معتدلاً يعرف حدوده أو لا يكون على الإطلاق، وفكرة الحد هي الثمرة الخالدة التي أهدتها إلينا شجرة الفكر اليوناني أو فكر الظهيرة والبحر المتوسط كما يسميه كامبي، واجتمع فيها كل روحه وكل جوهره، وهي وحدها التي تستطيع أن تحمي التمرد عبر التاريخ الطويل المزدحم بالتهور والتطرف والجنون، فتبين له النظام والمعياري، وتخلقه في كل لحظة من جديد، وتحرص على ألا ينزلق في الانحرافات التي وقعت فيها الثورات على اختلاف العصور. أمّا فكر منتصف الليل، أو فكر أبناء الشمال، فهو في نزوعه إلى المطلق وشوقه المستمر إلى اللامتناهي، وانفلاته من كل القيود والحدود التي تفرضها طبيعة البشر المحدودة، قد انتهت — على يد هيجل وأتباعه — إمّا إلى تأليه الإنسان أو تشييبه، لقد أراد أن يحقق المستحيل في الممكن، والمجرد في الواقع، والمطلق في النسبي، وكان هدفه هو تحقيق الحرية المطلقة عن طريق تأليه الإنسان، أو تحقيق العدالة المطلقة في دولة مثالية بعيدة يجعله شيئاً من الأشياء، إنه يندفع بأقصى سرعته في غزو الشمول، ويفلت على الدوام من الحدود ليتوه في مغامرة اللا محدود، وما أبعد ذلك عن فكر «الظهيرة» الذي وجد مثله الأعلى في الروح اليوناني الذي التزم دائماً بفكرة الحد، واستطاع أن يحافظ على التوازن بين الطبيعة والعقل، وبين الظل والنور، بعيداً عن النزعة الشمولية التي تهدد اليوم بدمار العالم!

وإذا كان كل تفكير أو سلوك ينفي نفسه بنفسه كلما تجاوز نقطة معينة فلا بد أن يكون هناك حد يلتزم به الناس كما يلتزم به الأشياء. ومن واجب الإنسان أن يبحث عن هذا الحد ويوجده؛ لأن من واجبه على الدوام أن يبحث عن التوازن بينه وبين العالم الذي يعيش فيه، ويعيش في توتر وصراع دائمين ليعثر على الوسط الملائم بين طرفين متباعدين، ولا بد أن يكون سبيله إلى ذلك هو الفكر «التقريبي» الذي ينصف الواقع ويقدر إمكاناته، ويحترم الممكن والنسبي فلا يحشره في قالب غريب عليه، ولا يفرض عليه مبدأً عدوًّا له. إن كامبي من القلائل الذين استطاعوا أن يقدروا خطورة الموقف الذي تمر به الإنسانية اليوم؛ لقد عرف مدى التطرف الذي وقع فيه الزمن الحديث في الفكر والسلوك، ووجد أن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذا الموقف الخطير هي إيجاد حدٍّ جديد يلتزم به الناس،

أيها الإنسان! لست إلهًا؟

ويتعلمون منه احترام الإنسانية في الإنسان، وهو لذلك جادٌ كل الجد حين يقول: «إمّا أن توجد قيمة الحد هذه بأية وسيلة، أو يجد التطرف الذي يتصف به زماننا قانونه وسلامه في الدمار الشامل الأخير.»^٤

التزام الحد والاعتدال ليس إذن رأيًا ولا فكرة يقبلان الجدل والمناقشة، بل واجب مُلحٌ يلقي ثقله كله على أبناء هذا الجيل. وإذا كانت العصور السالفة قد عرفت أن في فضيلة التوسط أو احترام الحدود تكريمًا للإنسان وضمانًا لسعادته وسلامه، فإن العصر الحاضر لا بد أن يدرك أن بقاءه أو زواله مرتبطان بمقاومة التهور والتطرف، والعودة إلى الحد والوسط. إن حقيقته وسط هذا العالم المضطرب مرهونة بقدرته على التزام التواضع والاعتدال، ولم يحدث في تاريخ الإنسان الطويل أن كان عليه أن يتعلّم الرقص على حبلٍ مشدود بين هاويتين يتربص به الخراب فيهما كما يحدث له اليوم: بين الطموح المغرور الذي يهيب له أنه يمكن أن يتشبّه بالآلهة، والهوان المطلق الذي يجعل من البشر قطعانًا صامتة تسير معصوبة العيون إلى المصير المجهول، عليه أن يتعلم من جديد أن الاعتدال هو ذروة الطبيعة الإنسانية، والجذر العظيم للعالم كما كان يقول أهل الصين القدماء، أعني أن يتعلم التواضع بمعناه الشامل الأصيل فيقول لنفسه اليوم قبل الغد: «أيها الإنسان لست إلهًا!»

^٤ راجع إن شئت كتابي عن البير كامبي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤، من ص ١٤٢ إلى ص ١٤٨.